



مركز الانطلاقة للدراسات

ALENTILAQAH RESEARCH CENTER (A.R.C)

نظرية التعقّد واستسلام غزة!



خالد غنام

مركز الانطلاقة
ALENTILAQAH RESEARCH CENTER (A.R.C)

نظرية التعقد واستسلام غزة!

خالد غنام¹

ما زالت شمس غزة تحرق أوراق العدالة والحكمة المحفورة بالضمير العالمي، وتنسج أسطورة القتال حتى الموت الجسدي، وبعدها تبدأ المعركة الحقيقية بين نور أرواحنا ونار الشياطين.

لا يوجد بالعلوم السياسية ما يجعل غزة لا تصل إلى حالة الاستسلام التام خلال فترة لا تتجاوز الستة أشهر قادمة، إلا إذا قرر عسكر العالم إشعال حرب إقليمية واسعة قد تتوسع لحرب عالمية ثالثة كما قال المرشح الجمهوري للرئاسة الأمريكية دونالد ترامب.

حسب نظرية التعقد² السياسية فإن الجيش الإسرائيلي وحركة حماس لا يمكنهما إعلان الهزيمة من طرف واحد، إلا أنهما سيقتبلان استسلام غزة على مضض.

وهذا يجعلنا نتفهم أن الواقعية السياسية التي تطرحها الحكومة اليمينية الإسرائيلية قد فشلت، فمفهوم التفوق العسكري للجيش الإسرائيلي لم يعد أمراً ذو أهمية، بل أن التغني بالصناعة العسكرية الإسرائيلية وتسويق منتجاتها بات أمراً من الماضي، وأكثر من ذلك فإن القدرات القتالية الإسرائيلية تعتمد بشكل كبير على المساعدات الخارجية يشقيها: الإمداد بالذخائر والمعدات وكذلك الإمداد بمعلومات الاستخبارات الدولية. وهذا سبب دمار كبير لصناعة من أهم الصناعات الإسرائيلية، وتبين فشل المخطط الأمريكي بضرورة تفريغ الشرق الأوسط من القوات الأمريكية واستبدالها بقوات حليفة للولايات المتحدة الأمريكية بقيادة إسرائيلية ومشاركة عربية تركية؛ فهي الإدارة الأمريكية تعيد تحريك القوات الأمريكية في عدة

¹ الباحث والكاتب خالد غنام الناشط السياسي في استراليا، وعضو مركز الانطلاقة للدراسات.

² حسب الكاتب الجزائري محمد حمشي بكتابه المعنون: مدخل الى نظرية التعقد في العلاقات الدولية يقول أن نظرية التعقد تتناول النظام الدولي بوصفه نظاماً معقداً، وشواشي السلوك أكثر من كونه مجرد نظام فوضوي البنية، وذلك بالاستناد إلى معرفية غير وضعية، تجد مرجعيتها في الواقعية النقدية، على أن ينظر إلى الواقعية بوصفها علماً، وليس مقارنة نظرية في العلاقات الدولية، إلى جانب أن نظرية التعقد تحاول التأصيل لإجابات بشأن إشكالات عديدة. ونظرية التعقد تتعامل مع نظرية فوضى الكون أو **نظرية الشواشية** (بالإنجليزية: Chaos theory) وهي واحدة من أحدث النظريات الرياضية الفيزيائية - وتترجم أحيانا **بنظرية الفوضى** - التي تتعامل مع موضوع الجمل المتحركة (الديناميكية) اللاخطية التي تبدي نوعاً من السلوك العشوائي يعرف بالشواش-مركز الانطلاقة للدراسات

دول وبحار في الشرق الأوسط، بل أنها طلبت إسناد القوات البريطانية وحلف الناتو في بعض العمليات.

أما مبدأ **التوازن الاستراتيجي** وهو أيضاً من أسس السياسة الواقعية التي كانت تعتمد عليها العديد من دول الشرق الأوسط، بل أن هذا المبدأ كان يحدد ترتيب القوى النووية بالعالم خلال فترة الثمانينات من القرن الماضي. وهذا المبدأ لا يصلح لدراسة الوضع الحالي بالشرق الأوسط وفقاً **لنظرية التعقد³** حيث أن هناك سرعة مناولة الذخائر من مصانع مركز المحور ودول الشرق الأوسط، وأن هناك تواجد فعلي لقوات مركز المحورين في ميادين الشرق الأوسط وقامت وستقوم بجهد قتالي مباشر.

من جانب آخر فإن فكرة الكفاح المسلح والحرب الشعبية طويلة الأمد والجهاد (الحرب الدينية) هي مبادئ السياسة المثالية التي تبنتها الثورات رداً على التوحش الامبريالي الذي يعتمد على السياسة الواقعية؛ إلا أن **السياسة المثالية** فشلت بالعقود الثلاث الأخيرة بشكل متكرر في الشيشان وأفغانستان ومشروع داعش والجيش الحر والنصرة وغيرها من التنظيمات التي توقعت أن السياسة المثالية مازالت ممكنة التطبيق إلا أنها فشلت في الوصول للهدف، والسبب أن السياسة المثالية تقوم أساساً على الدعاية الثورية وتسويق الفكر الثوري أكثر من تحقيق

³ ينطلق الكاتب محمد حمشي في كتابه "مدخل إلى نظرية التعقد في العلاقات الدولية" من فرضية تفيد بأن السياسة العالمية باتت تتسم بقدر متزايد من التعقد، وأن المقاربات النظرية المهيمنة على حقل العلاقات الدولية غير قادرة على تقديم فهم متنسق لها، ويشير لمفهوم النظرية مقابل الممارسة، ثم إلى أولاً: المثالية مقابل الواقعية المتقابلتين والمتعارضتين. ثم ثانياً النظر من خلال السلوكية (العلمية) والتاريخية، وثالثاً نظرية النسق الوضعي ثم ما بعد الوضعي، ورابعاً النظرية الاحداث في حقل دراسة العلاقات الدولية ونهضت مقارباته على البنائية والعقلانية والتأملية، وهو يقترح الى ماسبق نقاشاً أو **نظرية خامسة** هي نظرية التعقيد. يطرح مناقشة ثلاثة افتراضات أساسية تقوم عليها نظرية التعقد في حقل العلاقات الدولية، تتمثل في الاحتمية واللاتعنين، وعدم القابلية للتفكيك، واللاخطية. غير أن التركيز **يجرى على خصائص النظام الدولي والأنظمة المعقدة المكونة من عدد كبير من العناصر** التي يوجد تفاعل دينامي بينها، حيث تتسم مسارات التفاعل في الأنظمة المعقدة بالثراء والتعقد، وكل عنصر يؤثر في بقية العناصر ويتأثر بها، حيث تتميز الأنظمة المعقدة بأنها أنظمة مفتوحة تتفاعل مع البيئة التي تعمل فيها، وبوجود حلقات من التفاعلات، إضافة إلى أن التفاعلات تتميز بكونها لا خطية، بحيث إن الأسباب الصغيرة يمكن أن تكون لها نتائج كبيرة، والعكس صحيح، وهو ما يعد شرطاً مسبقاً لحالة التعقد-مركز الانطلاقة للدراسات عن قراءة في كتاب حمشي من قبل عمر كوش في موقع العربي الجديد.

فعل ثوري ضخم، بل أن تعتمد على حرب استنزاف طويلة الأمد: مثل حرب العصابات وحرب الغوار وحرب الفدائية (التعديل الفتاوي لحرب الغوار).

إلا أن الدعاية الثورية تقوم بالدور الرئيسي بالثورة من أجل توفير جبهات مناصرة للثورة وتحقيق الضغط السياسي على العدو ليقبل بمطالب الثورة أو على الأقل جزء منها.

بينما يقوم جهاز تسويق الفكر الثوري باستقطاب مؤيدون لقيادة الثورة وفكرها السياسي، وكذلك المجازفة بالدفاع عن فكر الثورة في مناطق غير صديقة للثورة بقصد توسيع جبهة المناصرة للثورة.

لقد اعتمدت "حماس" بشكل أساسي على السياسة المثالية في زمن يصعب فيه عمل دعاية ثورية؛ حيث تم اختبار جاهزية المنطقة وقبولها للتغيير عدة مرات خلال العقدين الماضيين، وعلمنا بعدها أن المنطقة تعيش حالة قطبية حادة (أمريكية سعودية ضد روسية إيرانية)، وأن الدول والأحزاب والشركات لا تمتلك القدرة على العمل في كل المنطقة بل عليها أن تختار أحد المحورين وتحاول أن تتعامل مع المحور الآخر عبر السوق السوداء أو وسطاء.

هذا الأمر حوّل كل سكان قطاع غزة إلى موالين إلى حركة حماس (حسب منظور المحور الأمريكي)؛ كما كانت الحالة مع سكان شمال سوريا والعراق أثناء حكم داعش فقد صنفوا جميعاً داعش، إلا من فرّ من مناطق نفوذ داعش لمناطق مجاورة. وهذا الأمر جعل الغالبية العظمى ترى أن الدعاية الإسرائيلية بأنها تقاتل نيابة عنهم ضد المحور الروسي بالمنطقة دعاية صادقة ومقبولة بل ذهب البعض لضرورة دعم الحكومة الإسرائيلية في القضاء على فصائل حماس.

من جانبها "حماس" لم تحاول تغيير **نهجها العدائي للحكومات العربية في المحور الأمريكي**، بل أنها كانت تلعب على الوتر العاطفي للشعوب ومحاولة دفع الشعوب نحو التمرد على حكوماتهم، إلا أن هذا النهج دفع الحكومات العربية إلى منع أي شكل من أشكال دعم حركة حماس وتحويل هذا الدعم نحو مناصرة الشعب الفلسطيني الذي وقع بين أطراف متقاتلة وأن المدنيين يموتون من كلا الجانبين المتحاربين. **وهذا يعني أن حماس فشلت بأن تحصل على أي دعم سياسي من الدعم العربية وبالتأكيد منع تدوال دعايتها الثورية بالدول العربية.**

أما **المحور الروسي** فقد تبني مشروع حركة حماس على أن يشكل جبهة إسناد ومشاغلة من المنظمات المسلحة وخاصة في لبنان واليمن؛ مما خلق مشاغلة حقيقية للجيش الإسرائيلي وصلت في فترات الذروة نحو 40% من القوات المقاتلة وهي نسبة مرتفعة جداً لجبهة إسناد،

بل أن قوة جبهة إسناد كان سبب زيادة العنف المفرط في قطاع غزة من أجل الضغط على جبهة الاسناد.

كما استخدم المحور الروسي فتوى قديمة للإمام الخميني تدعو لضرورة مقاطعة المنتجات الأمريكية، فخرجت حملة ممثلة في بيروت في نوفمبر 2023 بعنوان أنصر الشعب الفلسطيني بمقاطعة البضائع الأمريكية، ولاقت هذه الحملة رواج هائل في العديد من دول العربية والإسلامية وأحياناً الغربية، وشكلت اختراق كبير للمحور الأمريكي بالشرق الأوسط، علماً أن هذه الحملة لم تصدر عن حركة حماس وأن حركة حماس لا يمكن أن تسفيد منها سياسياً أو إعلامياً، لكن يمكن لروسيا وإيران الاستفادة من هذه الحملة بشكل كبير.

وضمن مفاهيم **الفوضى الخلاقة** نجد أن هناك تطابق فكري بين أهداف اليسار المتطرف بالدول الغربية والجماعات الإسلامية في الشرق الأوسط في ضرورة محاربة الرأسمالية الأمبريالية دون أن يعني ذلك دعم النفوذ الروسي بالشرق الأوسط. وهذا يعني أن الشعارات متشابهة بينهما إلا أن أهدافهما النهائية متناقضة تماماً.

ففي حرب غزة فإن **اليسار المتطرف** بالدول الغربية يدعو لضرورة استمرار الكفاح المسلح، بل أنه يسعى إلى توفير إسناد إعلامي كبير للكفاح المسلح على اعتباره الطريقة الأقصر للتخلص من الاستعمار ضمن الفكر السياسي المثالي. وكذلك تفعل حركة المقاطعة BDS فهي تؤيد المقاومة المسلحة في غزة وتدعو لضرورة تصعيد المقاطعة بالوقت الحالي. إلا أن كل من اليسار المتطرف بالدول الغربية وحركة المقاطعة BDS لا تؤيدان حل الدولتين بل حل الدولة الواحدة، وهما بالتأكيد ضد تشكيل حكومة إسلامية في قطاع غزة. إلا أنهما يؤيدان حملة أنصر الشعب الفلسطيني بمقاطعة البضائع الأمريكية التي تروج لها أذرع المحور الروسي الإيراني بالشرق الأوسط. كل تلك الحملات ترفض إدراج منتجات تركية وهندية وعربية وصينية ضمن قائمة البضائع المقاطعة علماً أنها تشكل أغلب واردات السوق الاستهلاكي في إسرائيل.

هذه الفوضى الخلاقة تشكل استنتاجات منطقية لنظرية الفوضى التي تؤكد أن ليس كل خسارة لعدوك هي بضرورة مكسب لك، كما أن هناك من بين حلفائك من يسعى لتخلص منك، وأن مركز المحور يرفض أن يحقق أحد التابعين له انتصار يجعله أقوى من مركز المحور. وهذا فعلاً ما يحدث في غزة فهي تقريباً تقاتل منفردة وأن كل إسناد يقدم لها له ثمن سياسي عليها أن تقبله أو تدفع عوضاً عنه.

وأن **الضغط الدولي** في الدول الغربية لا يمكن بشكل من الأشكال أن يشكل مكسب سياسي لحماس، فعلى سبيل المثال يلتزم اليسار المتطرف بالقرارات الأمنية الغربية المتعلقة بأن حماس منظمة إرهابية ولا يسعى لتقديم طعن بهذا القانون لمحاولة إكساب

"حماس" سياسياً أو الاعتراف بحق حماس بفتح مكاتب لها بالدول الغربية، بل أن اليسار المتطرف يستخدم مصطلح المقاومة الفلسطينية حق مشروع مادامت فلسطين محتلة.

للأسف أن تعميم المقاومة الفلسطينية وأن الشعب الفلسطيني كله مقاومة قدّم مبررات لجيش الاحتلال الإسرائيلي بقصف المدنيين العزل، وكان سياسو اليمين الإسرائيلي يرددون ما يقال في إعلام اليسار الغربي المتطرف بأنه لا يوجد مدنيين في غزة بل كله شعب مقاوم للاحتلال بمفاهيم حمالة الأوجه.

وبنفس الأسلوب تعاملت **الجمعيات الإنسانية** مع الفارين من حرب غزة حيث طلب من الفلسطينيين إدانة فصيل حماس أو اعتباره جزء من الكارثة الإنسانية التي حلت في غزة، ومن لا يوقع على هكذا تعهد فإن معاملة إقامته بالدول الغربية تتعدّد أكثر فأكثر.

أما بخصوص المساعدات الإنسانية لقطاع غزة فقد سمحت جميع دول العالم بفتح باب التبرعات لتقديم المساعدات بشكل فردي أو مؤسّساتي أو حكومي، وشكلت مصر المعبر الرئيسي لأغلب تلك المساعدات مع تنسيق تام مع الجانب الإسرائيلي الذي كان يحدد كمية ونوعية المساعدات المسموح دخولها. بل أن الجانب الإسرائيلي يحدد مكان وزمان توزيع تلك المساعدات على المدنيين ويختار مشرفين فلسطينيين الذين يعتبرهم غير مسيّسين. والآن فإن أغلب المساعدات تدخل من الأردن بالتنسيق مع الجانب الإسرائيلي بنفس الطريقة، وهناك مساعدات تدخل من السوق الإسرائيلية مباشرة إلى غزة عبر المؤسسات الدولية مثل مؤسسة الصليب الأحمر وغيرها من المؤسسات.

من هنا فإننا قادرين على استنتاج أن استسلام غزة سيكون قريباً وفقاً لنظرية **التعدّد** التي شرحناها وهي تعتمد على فهم أعمق للعلاقات الدولية الحديثة، فعلى الرغم من الأحداث الكبيرة التي نمر بها الآن، فإنها لن تغير من نتيجة استسلام غزة وسحب السلاح في قطاع غزة مع إيجاد حكومة فلسطينية قادرة على التعامل سياسياً مع دول المحور الأمريكي وخصوصاً السعودية ومصر والأردن والتعامل أمنياً مع الولايات المتحدة الأمريكية وإسرائيل، وأن هذه الخطوة لا تعتبر تمدد للنفوذ الأمريكي بالمنطقة بل إعادة الوضع لما قبل يونيو 2007 عندما سيطرت حركة حماس على قطاع غزة وحولته لمنطقة نفوذ إيراني.

في **نظرية التعدّد** لا يوجد حلول شاملة ولا دائمة فموضوع استسلام غزة وسحب سلاح المسلّحين قد لا يعني القضاء على فصيل حماس بل قد يكون أن تتحول "حماس" سياسياً نحو المحور الأمريكي.

كما فعل الشهيد الخالد أبو عمار ياسر عرفات عندما زار مصر بعد خروجه من بيروت عام 1982 في زمن كانت كل الدول العربية تقاطع مصر التي وقعت اتفاقية كامب ديفيد.

وقد يكون هناك احتمالات كثيرة في لوغاريتمات الفانتوم (الوقت الشبهي)، إلا أن كل تلك الاحتمالات تظهر أن حرب غزة لم تعد مفيدة لمركز المحور الأمريكي ويجب إنهاؤها أوتجميدها. وأن المحور الروسي لا يسعى زيادة تكاليف الحرب، بل أنه يريد حرب استنزاف لتخفيف الضغط على مركز المحور الروسي الذي افتعل عدة جبهات للمحور الأمريكي في افريقيا مثل مالي واثيوبيا والسودان، ولا يرى أهمية كبرى يمكن تحقيقها في غزة.

في النهاية لا أحب أن أكون متشائماً في ظل هذا النظام الحالي الذي يحكم الشرق الأوسط، وقد حاول الصين الدخول كلاعب إضافي سعياً لتشكيل محور صيني بالمنطقة إلا أن **السلوك الصيني كان مجرد تشويش إحلالي للرغبات الروسية**، ومن جانب آخر ظهر تصعيد تركي داعم لفلسطين دون أن يكون مساند إلى إيران فكانت قدرته على التأثير صفرية، خصوصاً أن المنتجات التركية مازالت تعبر الأسواق الإسرائيلية عبر وسطاء أوروبيون، وأن هناك عروض هندية لتقديم بدائل غذائية للمنتجات التركية. لذا فإن القطبية بين محورين ستبقى ما يحكم الشرق الأوسط، وأن الولايات المتحدة الأمريكية تريد غزة أن تعود لمناطق نفوذها لذا على غزة أن تستلم.

تابعوا نشرات ودراسات ومتابعات مركز الانطلاقة للدراسات

على منصة أكاديمية فتح الفكرية في تلغرام

<https://t.me/fatahacad>